

## فلسفة السخرية في الخطاب الحجاجي

أ- هبة الله بغدادادي<sup>1</sup> أ-د مليكة بلقاسمي<sup>2</sup>

<sup>1</sup>جامعة الجزائر 2- الجزائر. <sup>2</sup>جامعة الجزائر 2 - الجزائر

hibtallah.beghdadi@univ-alger2.dz

belkacemika@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/29 تاريخ القبول: 2021/12/30 تاريخ النشر: 2022/01/23

### ملخص:

بالرغم من تعدد الدراسات اللسانية والسيميائية الغربية بالفرنسية والانجليزية المقاربة للنص الأدبي إلا أنّ مثيلاتها في الدرس اللساني العربي الحديث قليلة، خاصة منه الدرس التداولي لموضوع الحجاج في مختلف أنواع الخطابات؛ كالخطاب الساخر مع توزعها على اهتمامات مختلفة، فبعضها مرتبط باللسانيات وبعضها أدخل في قضايا السيمياء والنقد الأدبي وأخرى متصلة بالجوانب الإعلامية ونظريات الاتصال، لهذا أردنا تسليط الضوء على هذا النوع من الدراسة في فكرنا العربي المعاصر لظروف معرفية ومنهجية مختلفة، أطرتها اللحظة الثقافية العربية والواقع الاجتماعي الراهن.

كلمات مفتاحية: الخطاب ، الحجاج ، فلسفة ، السخرية.

### Résumé

Malgré les plusieurs études linguistique et sémiotique dans l'approche française et anglaise sur le texte littéraire, en parallèle rares, les études sur la proche argumentatif dans la linguistique arabe moderne, en particulier la pragmatique sur la question de l'argumentation dans ses différents types de discours; tel que le discours ironique avec sa distribution à des différents intérêts, certains d'entre eux liés aux études linguistique et d'autre font partie de questions critique littéraire

et sémiotique, et d'autre relève de la médiatique et théories de la communication., ce qui montre la nouveauté de ce type d'étude dans la pensée contemporaine arabe aux circonstances de la connaissance et une méthodologie différente.

**Les mots clés** : discours, argument , philosophie , ironique

المؤلف المرسل: هبة الله بغدادادي

. مقدمة:

يمتاز الجاحظ بثقافته الواسعة المتشعبة بمبادئ الدين الاسلامي الحنيف ومن اطلّاعه الكبير على التراث العلمي القديم من الثقافة اليونانية والفارسية وغيرها. كما أضفى على جانبه العلمي المتنوع، روح الدّعابة والتّفكه، فكان من مظاهره؛ المزج بين الجدّ والهزل الذي تجسّد بصورة كبيرة في كتابه " البخلاء " من خلال ظاهرة السخرية من بخلائه، الأمر الذي جعله يبدع في توليد الأحاديث على السنة هذه الفئة من المجتمع، مستعيناً في ذلك بأسلوب الاحتيال كتقنية حجاجية في تمرير قناعاته، متخذاً مبدأ التّأدب في التعامل مع شخوصه من جهة، ومع المتلقي أو السامع من جهة أخرى، رغبة منه في إثبات رؤية وجودية سيطرت على فكره وكانت منطلقه الرئيسي - ليس في كتاب " البخلاء " وحسب، ولكن في جميع تصانيفه الأدبية منها والعلمية - وهذه الرؤية تتجسد في نظرية الاعتدال.

### 1- السخرية: كآلية حجاجية

فمصطلح السخرية في الفكر الغربي إلى الأصول الإغريقية. فقد (ironie, irony) يعود مصطلح السخرية استخدمها سقراط في كلامه عندما كان يدافع عن فكرة الحقيقة وفكرة العدالة ضد غرور السفسطائيين، ولذلك انطوت السخرية عنده على خصوصية المظهر الخادع وإمكانية الضحك، فكثيراً ما كان

## أ- هبة الله بغدادي، أ-د مليكة بلقاسمي

يطرح الأسئلة على مستمعيه كما لو كان يريد منهم أن يعلموه ولكنه في حقيقة الأمر يريد أن يريح المعركة وينزع الثقة من الخصم، وهنا يكمن بعدها البلاغي، وإذا كانت السخرية في المرحلة الإغريقية قد انبثقت من فيض الحوارات الفلسفية وارتبطت أساسا بالبعد الأخلاقي الهادف إلى ادانة القيم الخاطئة وإعادة النظر في السائد من الأفكار أحد محاور اهتمام الحقل البلاغي.

أمّا إذا رجعنا إلى البلاغة العربية القديمة، فإننا نجد أن مفهوم السخرية يتقاطع مع مصطلحات بلاغية كثيرة، ولعل من أهمها: الهزل، الاستهزاء، التهمك، الهجاء في معرض المدح، التعريض، أسلوب الحكيم، نفي الشيء بإيجابه، فضلا عن كلمة سخرية نفسها.

تقوم السخرية على مكونين أساسيين هما: (محمد العمري، 2005، 87)

أ- مكون انفعالي: يتجلى في الاستخفاف المشتمل على الضحك أو على الإستهجان أو مجرد الإحساس بالمفارقة.

ب - مكون بنائي: يتجسد من خلال المفارقة الدلالية وما يترتب عنها من غموض والتباس.

أضافت البلاغة الجديدة مكونا جديدا يتمثل في البعد الحجاجي، فالسخرية إستراتيجية يوظفها الباحث للهجوم على خصومه وإدانة أقوالهم وأفعالهم، وهي تعتمد في نجاحها على استثمار ظروف التلفظ وملابساته.

وانطلاقا من هذه الوظيفة الحجاجية، قدّم "برندونير Berrendonner

تعريفا للسخرية يجعل صلتها بالحجاج وثيقة " إذ يعتبرها تناقض قيم حجاجية فما يسمح بقيام جملة ما ساخرة عنده كونها حجة على فرضية ما." (سامية الدريدي، 2011، 164) وفي هذه الحالة تلتقي حجج فرضية ما بحجج فرضية مختلفة عنها،

## فلسفة السخرية في الخطاب الحجاجي.

فقولنا لفلان "إنك ذكي" في مقام سخرية تجعل القول حجة تحمل إلى نتيجة هي مناقضة تماما للنتيجة التي تفهم من ظاهر القول .

يرى محمد العمري أنّ موضوع السخرية صار شبه مجهول في الدراسات البلاغية العربية الحديثة وقد انعكس هذا الواقع على الدراسات النقدية التطبيقية فأنت في أكثرها انطباعية توحى بالإحساس بالظاهرة دون أن تستطيع الإمساك بخيوطها . (محمد العمري، 2005، 4 8) . لذلك دعا هذا الباحث البلاغي إلى فتح الموضوع أقصى ما تسمح به بنيته ليستوعب أوسع مجال انطلاقا من أبعادها التداولية وآلياتها الحوارية .

### 2- خصائص السخرية عند الجاحظ:

كان الجاحظ في المدونة المدروسة يتعمد فضح البخلاء، فنسب إليهم كل ما يحطّ من مروءتهم، ولكنه أحيانا كان ينقل حججهم في الاقتصاد والادّ خار، ولا يمكن أن نفهم هذا التعارض، إلا إذا فهمنا أن السخرية عند الجاحظ تقوم على ثلاث آليات متداخلة ومتفاعلة:

### 2-1 الالتباس:

آلية تقوم عليها السخرية الأدبية في كتاب البخلاء، فبخلاء الجاحظ هم في مستوى عال من المعرفة، ولذلك يتسم كلامهم بالقدرة الحجاجية التي تسعى لإقناع المتلقي ولكن آراءهم كانت توجه لصالح رغباتهم النفسية . ويصرّح الجاحظ بأن عجبه في هذا الكتاب "ممن قد فطن لبخله وعرف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظنّ أن قد فُطن له وعُرف ما عنده، فموّه شيئا لا يقبل التمويه ، ورقع خرقا لا يقبل الرقع (الجاحظ، البخلاء بين التخيل والتداول، 03).

## 2-2 الذهول:

وهو أحد المبادئ الكبرى في تفسير السخرية، ونقصد به أن المسخور منه يقع في ذهول عن المقام فيخفق في توجيه الحجّة، ففئة البخلاء تقع في مفارقة اقتران المعرفة بالغفلة كما حدث لأبي الهذيل الذي عرف بتعجبه من الدجاجة التي أهداها لمويس بن عمران، ولكنه وقع في غفلة وذهول عن توجيه الحجّة في الدفاع عن بخله، فمن شدة إمساكه الشديد ظلّ أن هذه الهدية قد تقيه كلام الناس عن شحّه ، غير أن كثرة افتخاره بها ومنه بكثرة ذكرها جعله موضع سخرية .

## 2-3 التوريط:

أدرك الجاحظ خصوصية بلاغة السخرية، فالساخر لا يحرص على مطابقة الخطاب للواقعة ولا للتصدي للعيوب بطريقة مباشرة، بل هو يصفق للاعوجاج ويدفع به إلى الحدّ الأقصى "إنه يعطي الكلمة للمسخور منه ولا يفتأ يحرك له رأسه بالموافقة ليستمر في بسط الحجج التي تكشف منطقته الخاص المستمد من هواه وذهله عن الواقع" (محمد العمري، 2005، 131) ، ففي إلحاح أبي هذيل على ذكر الدجاجة في القصة السابقة توريط له يظهر حرصه على الشحّ والإفراط في الاقتصاد. وقد يكون التوريط بدفع المسخور منه إلى الاستعانة بالحيلة ونعني بهذه الطريقة " لجوء بعض الشخصيات في بخلاء الجاحظ إلى المكر والخداع والكذب لأجل تحقيق أغراضها. (عبد الواحد التهامي العلمي، 2009، 51).

إن الرجوع إلى المدونة يجعلنا نكتشف أن الخطاب الساخر الذي تضمنته قائم على هذه الخصائص التي تمت الإشارة إليها، ونضرب مثالا على ذلك تمجيد أبي عبد الرحمن للرؤوس، فالرأس سيد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، كما أن النفس هي المدركة، والعين هي باب الألوان. والنفس هي السامعة الذائقة،

وإنما الأنف والأذن بابان. ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه ، وفي الرأس الحواس الخمس " (الجاحظ، البخلاء، ص107).  
فالقارئ لهذا الكلام يتفطن بسهولة أن البرهنة - من طرف الجاحظ - على سعة المعرفة عند المتكلم مقصود لكشف سوء توظيفها، إفقناع المتلقي ببخل هذا الرجل قائم على إستراتيجية وضع المسخور منه في ذهول عن المقام، وينكشف ذلك في إيراد الحجاج المناسبة وغير المناسبة، حتى أن طريقة احتجاج أبي عبد الرحمن بنبل هذا العضو- الرأس - جعله يخدم نتيجة معاكسة فكلامه يجرح الذوق ويذهب بالشبهة.

ويضرب الجاحظ مثالا آخر لذهول البخيل عن موضع الحجة بسبب سيطرة الهوى عنده، فأبو عبد الرحمن يقنع ابنه بالاقتصاد قائلا: " أي بنيّ ، لم صار الضبّ أطول شيء عمرا، إلا لأنه إنما يعيش بالنسيم؟ " الجاحظ، البخلاء، (110). فالمتلقي يكتشف التضليل الذي يمارسه البخيل في هذا المسار الحجاجي .

لا شكّ أن سخرية الجاحظ في هذه المدونة تنبني على انتقاد اعتقادات وسلوكات شخص أو مجموعة، ولذلك فهي تحمل حمولة حجاجية و"تعمل على سلب المسخور منه ما يمنحه مصداقية القول والفعل بتجلية تناقضه واستدعاء سلبياته" (أمينة الدهري، 2011، 23).

إن هذه العلاقة الساخرة تحكمها عناصر لسانية قائمة على المفارقة الدلالية، وأخرى سياقية يعتمد عليها المتلقي في فهم التعارض الحاصل بين الملفوظ والمرجع.

### 3-موضوع البخل وحجاجيته

مهما يكن الأمر في مدى صدق الجاحظ في تلك القصص والأخبار التي ينسبها إلى المعاصرين له والسابقين عليه سواء رآها أو سمعها ممن كان يجلس إليهم أو نقلها مما قرأ، فإنّ هذه الأخبار أو القصص قد كتبت - ولا شك - بأسلوب

## أ- هبة الله بغدادى، أ-د مليكة بلقاسمي

الجاحظ، وحتى إذا كان قد رواها عن أهل عصره بلسانهم حقيقة - فلا شك - أنه قد لَوَّنَها بأسلوبه الذي يجعله طيِّعاً لقلمه..

فأسلوب الجاحظ على ألسنة البخلاء يكثر فيه الحجاج المنطقي والعناية بكثرة إيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء أو الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية كبيرة بتحقيقها وتخيّر القويّ منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو الضعيف أو الثابت أنه موضوع عقلا. وكذلك يلاحظ على أسلوبه الذي يستخدم في الحكاية عن البخلاء أو النطق به على ألسنتهم العناية بالأسلوب الأدبي الرفيع حتى الذي يحكيه عن أناس لا يظن في كلامهم ونوادهم الشعبية التي تقال بديهية يعنون بهذا النوع من الترف اللفظي والتأليف الجزل بين الجمل أو الاستطراد في إيراد المعلومات المختلفة، من تاريخية وجغرافية وطبيعية وحيوانية وفلسفية وغيرها ممّا يدل دلالة واضحة على عقل الجاحظ الذي أَلْفَها؛ ذلك العقل الفلسفي الممتاز الذي استوعب جلّ ما كان في عصره من ثقافة وعلوم جمّة ( عبد الله الغدامي ، 200 ، 145)..

ويمكن أن نقول في شيء من الاطمئنان، إنّ السبب المباشر في تأليف هذا الكتاب هو سخريته من هؤلاء البخلاء، الذين حضر مواعدهم أو رأى أحوالهم المضحكة، فأراد الانتقام منهم لفرط حساسيته من جهة، ولروحه الفكاهة من جهة أخرى، فألّف هذا الكتاب لأنّ الأديب الحق لا بد أن يكون قويّ الحسّ وإذا أحسّ فلا بدّ أن يعبّر، وإذا عبّر فلا غضاضة من أن يطلق لخياله العنان وأن يترك طبيعته على سجيّتها حتى تنتج له ما يخفف عما يحسّه ويُرْضي به تلك الطبيعة الفنية الخلاقة، التي يسخر بواسطتها من البخل والبخلاء عموما ومن بعض البخلاء خاصة دون التّعرض لذكر الأسماء أحيانا كقوله: " وقد كتبنا أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إما بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم."

#### 4. المحاجة عن طريق السخرية L'argumentation par l'ironie

إنَّ سخرية الجاحظ تبرز عيوب الآخرين بتحفظ من أجل هدف أخلاقي، هو إصلاح الفرد والمجتمع؛ فهو يذكر هذا الشخص حتى يجعله يعتزل هذا العيب إن أمكن أو حتى يدفع غيره إلى الاحتراز منه، فهذه الصفة الأخلاقية تحمل الإصلاح في طياتها فهي قريبة كل القرب من البناء وبعيدة كل البعد من الهدم والدليل على أنَّ الجاحظ يسخر من بخلائه بتحفظ وهو نوع من الحجاج الهادف، ما جاء في مقدمته قائلا: " لأن ههنا أحاديث كثيرة متى اطلعنا منها حرفا عرف أصحابها وإن لم نسمهم ولم نرد ذلك بهم ... " (الجاحظ، البخلاء، 07). وفي موضوع آخر يقول: " وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إمَّا بالخوف منهم وإمَّا بالإكرام لهم... " (الجاحظ، البخلاء، 8).

هذا دليل على أنَّ سخرية الجاحظ مهَّد لها بهذا التبرير الذي يحمل في طياته نوعا من التحفظ في تناول موضوعه والاستدلال له بالوجه الذي يراه صوابا.

الجدير بالذكر أنَّ ثقافة الجاحظ تأثرت بثقافات ما حول شبه الجزيرة العربية من فرس ويونان... ونلمس ذلك من خلال تأثره الكبير بثقافة اليونان تأثرا نلاحظه في أكثر من موضع ومن دلائل هذا التأثر ما شاع في أدبه من جدل وحوار تعززه السفسطة أحيانا (فتحي معوض أبو عيسى، 1970، 217)، ومن هذا ما يتحدث به في قوله: قلت للحزامي: قد رضيت الناس فيك أنك بخيل. قال: لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يقال: فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فإذا سلم المال فانعتني بأي اسم شئت... قلت: لا يقال أيضا فلان سخي إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم بحمد المال والذم واسم البخيل يمنع المال والذم... قال (الحزامي) بينهما فرق، قلت: هاته قال في قولهم: بخيل تثبت لإقامة المال في ملكه -

## أ- هبة الله بغداددي، أ-د مليكة بلقاسمي

واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم واسم السخيّ فيه تضييع وحمد، والمال نافع مكرم لأهله معز، والحمد ربح وسخرية واستماعه ضعفا، قوله "خساسة" وما أقل والله غناء الحمد إذا جاع بطنه، وعري جلده وشمته من كان يحسده " (الجاحظ، البخلاء، 62). واطّلاع الجاحظ الواسع مكّنه إلى حدّ بعيد من التلاعب بالأفكار، فمزج بين الجدّ والهزل وهما من خصائصه (هنري بيراز، 1958، 8).

ومن سمات السّخرية أيضا عند الجاحظ التغافل أو الغفلة، لتمثل البنية الحجاجية، وهذا ما نستشفه من حال غلامه نفيس، ما يذكره في قوله: قلت لغلامي نفيس: بعثتُك إلى السُّوق في حوائجَ فاشترتِ ما لم أمُرْكُ به، وتركت كل ما أمرتُك به! قال: يا مولاي: أنا ناقةٌ وليس في رُكبتِي دماغٌ!" (الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الرابع، 26). ومن هذا الحديث نفهم تدرج الغلام باصطناع الغفلة. إذ المعنى كما يفهم من سياق حديثه اللاحق: "اللهم حوالينا ولا علينا" وهنا نلمس تأثر نفيس بالجاحظ لطول معاشرته له، فانطبع بطابعه ودليل هذا ما ذكره الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، أن غلامه نفيسا كان إذا مشى إلى فراشه في كل ليلة في سائر السنة يقول في دعائه " اللهم علينا ولا حولنا " (الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الرابع، 19)، والمقصود عكس المذكور كما سبق وذكرناه.

يجب أن نذكر في هذا السياق ميزة عند الجاحظ هي أقرب إلى مذهبه الأدبي منها إلى أسلوبه الكتابي، فقد حاول إدخال الأدب الشعبي في الفصح مع إبقاء هذا الأدب الشعبي محافظا على خصائصه- الروح الشعبية- فهو عندما يستشهد بنادرة شعبية يرويها فلا يدخل فيها إعرابا، ولا تنسيقا فصيحاً ، وفي هذا كله، يوظف الجاحظ هذه التقنية في الكتابة في الابتعاد عن الاعراب، رغبة منه في تقريب الفكرة إلى القارئ أو المستمع وإقناعه بها كما جاءت لفظا ودلالة.

ومن أبرز خصائص السُّخْرِيَّة كذلك عند الجاحظ، أنّ قوامها اللفظ والكلمة المناسبة للمعنى، فإذا استخدم الكلمات، فإنه يستخدمها استخدام المصوّر لألوانه وإصباغها في واقعية مصوّرة ويتجلى ذلك واضحا فيما يأتي من كلامه: « ..إلّا أنّي أزعّم أنّ سخيفَ الألفاظ مُشاكلٌ لسخيف المعاني. وقد يُحتاج إلى السّخيف في بعض المواضع، وربّما أمتع بأكثر من إمتاع الجَزَلِ الفخم من الألفاظ، والشريفِ الكريم من المعاني.

كما يُعدّ كتاب "البخلاء" أعمق دراسة كتبها الجاحظ في الإنسان ونفسيته، فقد اتخذ البخلاء بشتى مظاهرهم مادة كتابه، فسَلَطَ أضواء حيّة بأسلوبه الساخر على نوازعهم الخفيّة الوقحة الناضبة من روح العطاء والمشوّهة القيمة والمجردة من أي إحساس بالقيّم وحسبنا في هذه العجالة أن نقول" إنّ كتاب البخلاء انطوى على دراسة حيّة للبخل والبخلاء في أسلوب فكاهي انتقادي ساخر يحتوي على كل الوجوه المضحكة من أشكال وحركات وكلمات. والبخلاء هم موضوع فن السّخرية في هذا الكتاب، وهي سخرية مريرة تفرض عليك أن تضحك ضحكا ساخرا مزدريا لأفعال البخلاء وأقوالهم لأنّها متناقضة مع طبيعتهم الغلابة، المحبة للمال والجاه والطعام رغم أن أصحابها من ذوي اليُسْرِ. فبخلاء الجاحظ أغنياء" (العوي، راجح ، 1989 ، 223 ) كبخيل مولير وهذا صرّح الجاحظ قائلا: " وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليُسْرِ وبين خصب البلاد وعيش أهل الجذب، فأما من يضيّق على نفسه لأنّه لا يعرف إلاّ الضيق، فليس سبيله سبيل القوم" ( الجاحظ ، البخلاء ، 122). وللجاحظ طرق في السّخرية بالبخلاء بأسلوبه على لسانهم، ومن هذه الطرق:

**1-4-التصوير المضحك كوسيلة حجاجية في وصف البخلاء،** فقد قال على لسان

الحارثي يدافع عن كرهه دعوة الناس لتناول الطعام على مائدته:

#### أ- هبة الله بغدادي، أ-د مليكة بلقاسمي

هذا عليّ الأسواري، أكل مع عيسى بن سليمان بن علي، فوضعت قدامهم سمكة . عجيبة، فائقة السمن، فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز شحما وقد غصّ بلقمة- وهو المستسقى- ففرغ من الشراب، وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمة غرفة. وكان عيسى ينتخب الأكلة، ويختار منهم. استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي وانكدار العقاب، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته.

فهذا وصف مضحك مليء بالتّهمك الخفي من الجاحظ، وهذا أسلوب بارع في المحاجة، حيث يصوّر هذا البخيل، ثائرا على هذا الطاعم الجشع الذي أكل مع عيسى ابن سليمان، ويحاول الجاحظ أن يصفه - على لسان الحارثي - وصفا دقيقا كأنه - أي الحارثي البخيل - كان ينظر طوال تناول الطعام إلى كل لقمة يأكلها عليّ الأسواري، وإلى كل حركة يقوم بها، ومن هنا يكمن التّهمك وتتبع السخرية.

#### 4-2- التشنيع كمحاجة ساخرة:

إنّ الجاحظ كثيرا ما يضع النوادر أو القصص حول بخلائه، وكانت هذه التشنيعات كثيرا ما تكون مبالغا فيها، ويصّدر بها دائما الكلام على البخيل، ومن أمثلة ذلك، قوله في أحمد بن خلف: " فقلت له - وقد ورث هذا المال كله - ما بطأ بك الليلة؟ قال: لا جملة القول أنّ السّخرية كأسلوب حجاجي لدى الجاحظ ما هي إلاّ وجه من وجوه الوظيفة التذكيرية، التي تدعو القارئ إلى اجتناب سلوكات شخوصه، لما تحمل من نقائص خلقية مُضرة بالإنسان في كل زمان ومكان. وفيها كان الجاحظ أحسن مذكرا عاملا بقوله تعالى: " وذكّر إن نفعت الذكرى" حتى لو كان هذا التذكير عن طريق السخرية، كأسلوب حجاجي يهدف إلى معرفة علمية وأدبية. والله إلاّ أنّي قد تعشيت البارحة في البيت؟.. "

( الجاحظ، البخلاء ، 63).

#### 3\_4- حجاجية المفارقة (Paradoxe) في السخرية

اعتمد الهزل عند الجاحظ على إستراتيجية ناجعة تعتمد على استثمار التشويق والفكاهة للدفاع عن القِيم والتصدي لكل السلوكات الشاذة، ومن هذا المنطلق هزل الجاحظ في نثره بنماذج بشرية عرف عنها الادعاء والمبالغة، واختار في هذه المدونة المدروسة شخصية البخيل الغريبة في أقوالها واستطاع الجاحظ في هذا الخطاب الهزلي أن يؤسس لبلاغة جديدة تعيد الاهتمام للأدب ظلّ إلى أمد بعيد على الهامش، وفي هذا دعوة صريحة للاشتغال بأدب الفكاهة والسخرية لاستثمار الفوائد الكثيرة التي يحملها، فما أكثر المواضع التي امتزج فيها الهزل والضحك بالمتعة والإفادة " ولو استعملّ الناس الدمثة في كل حال، والجدّ في كل مقال، وتركوا التسمح والتسهيل وعقدوا في كل دقيق وجليل، لكان الشر صراحا خيرا لهم، والباطل محضا أرد عليهم. ولكن لكلّ شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه... (الجاحظ، رسالة الترييع والتدوير ضمن رسائل الجاحظ، 80).

استثمر الجاحظ جميع الخصائص المشكلة للخطاب الساخر، وجعلها مرتكزا في بناء المفارقة التي يحملها خطابه وكثيرا ما كان يدفع شخصياته تتورط في موقف يظهر بخلها ولكنها رغم ذلك ترفض الاعتراف بل تسعى لتبرير سلوكياتها الغريبة والشاذة بأقوال توهم بالعقلانية، ومن بين نواذر المدونة التي بنيت على هذا الموقف ما حدث لعلي الأسواري الذي استلب اللقمة من يد الأمير ولما عيب عليه ذلك، "قال: لم يكن الأمر كذلك، وكذب من قال ذلك. ولكننا أهوينا أيدينا معا، فوقع يدي في مقدّم الشحمة، ووقعت يده في مؤخّر الشحمة، معا. والشحم ملتبس بالأمعاء. فلما رفعنا أيدينا معا، كنت أنا أسرع حركة." (الجاحظ، البخلاء، 69).

4-4- المحاجة عن طريق الاحتيال Argumentation par manipulation :

وهو يتمثل في التأثير عن طريق الأسلوب، وهو طريقة قديمة تظهر في الخطابة التي كانت تعدّ صناعة فنية عند العرب القدامى، التي أساسها الاستعداد الفطري لدى الخطيب. والاحتيال الكلامي يظهر عندما يحسن الخطيب أو الأديب الكلام في أيّ موضوع يختاره لسامعيه باختيار الحجج والتبريرات والتعليقات المقنعة، فتجعله عبارة عن نقطة محاورية يدور عليه مدار الكلام\* وهذا ما حاول إبرازه " فيليب يروتون" Philippe Breton في كتابه "La parole Manipulée"، (Philippe, 2000 p83) والذي حاولنا ترجمته ب: انحرافية اللغة\* بنوع من التحفظ. فالاحتيال كبنية حجاجية، كان للجاحظ الفضل الأسبق إليها، وذلك بإيراد نفس المصطلح بقوله:

"وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظّه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يُخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرج من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم ". ندرك من كلام الجاحظ، أنّه من حق كل أديب أن يستعمل طريقة الاحتيال في إقناع سامعيه شريطة ألا يخرج عن الموضوع الذي يخوض فيه.

كما نجده في " البيان والتبيين " يشير إليه بقوله: " .. والذي يورث الاقتدار من التهمّ والتسلّط، والذي يَمكّن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعاني، والخلافة وحسن المنطق.. " (الجاحظ، البيان والتبيين، 366). وكذلك نجده في موضع آخر يصرّح بتوظيفه أسلوب الاحتيال كآلية حجاجية تهدف إلى تغيير الواقع بقوله: " وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال وحتى تُؤنس.. " (الجاحظ، الرسائل، 97). من هنا ندرك أنّ الجاحظ لجأ إلى الاحتيال كأسلوب حجاجي وإلى التمويه قصد الفهم والإفهام وحصول المنفعة الأدبية، وكل ما يترتب عنه من

منافع جمّة للقارئ، باستعمال كل من الوظيفة التموهية والتذكيرية التي أوردتها في مقامات مختلفة من كتابه "البخلاء".

#### 5-4 المحاجة عن طريق توليد الأحاديث

استعمل الجاحظ فعل " وُلِدَ بمعنى أَلْفَ كما استعمله بمعنى " كتب " و"تحدث" في معانٍ " حديث" وأحاديث" وهذه لغاية الخلق والابتداع وليس خلاف في ذلك كما يصرح به الأستاذ ميشال عاصي قائلا: " يستعمل الجاحظ فعل " وُلِدَ بمعنى " أَلْفَ " لا على أساس الابتداع والخلق كما هو مدلولها المتداول بيننا اليوم، بل بمعنى تقليد الآثار استنادا إلى نماذج سابقة معروفة ونسبتها إلى كُتَّاب المشهورين (ميشال عاصي، 1981م، 149). هذا القول صحيح بالنسبة إلى نسبة كتب الجاحظ الأولى إلى مشاهير أدباء عصره في بداية حياته، وهذا طلبا للشهرة والمكانة الأدبية، إلا أنّ هذا لا يلغي هيمنة شخصية الجاحظ في مجموع مؤلفاته، ولقد لازمته هذه الطريقة إلى أخريات حياته، فكان وضع الأحاديث وتوليدها باب من الأبواب التي اتَّسَمَت بها نزعتُه الأدبية ووجدت فيها متاعا ومجالا لها لتعريفها.

وقد يتأثم بعض المتزمتين إلى أن نسند إلى الجاحظ أنّه كان واضعا مؤيدا، ويرون في هذا المنهج من التكذيب والتزوير، على أنّ التّصوص الصريحة مظهرة على هذا الذي نقره فقد تكلم الجاحظ عن ظاهرة التوليد في مقدمة البخلاء وخلالها، فقال: " ولو أنّ رجلا ألزق نادرة بأبي الحارث جَمِين والهيثم بن مطهر وبمزيّد وابن أحمر، ثم كانت بادرة لجزت على أحسن ما يكون، ولو وُلِدَ نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النّوّاء وإلى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة.

## 5- الاعتدال وحجاجيته.

هو مفهوم جمالي وفلسفي اتخذه الجاحظ قاعدة لبناء نصوصه الحجاجية التي ألبسها لباس البخل، ولم نعهد أديبا آخر قبل أو بعد الجاحظ سلك لتصوير الواقع وما يجب أن يكون عليه لتحقيق الانسجام والاعتدال في مختلف مظاهر الحياة هذا المسلك، وهذا ما تم اكتشافه من خلال استقراء نصوص البخلاء.

وقبل معالجة هذه النصوص، تجدر الإشارة إلى فكرة الاعتدال والانسجام التي تحقق الجمال في النتاج الأدبي للجاحظ. هذا الجمال الذي لم يعره الفلاسفة العرب العناية الكافية، فلا نجد نظرية جمالية إلا عند الجاحظ، وربما ساعده على ذلك موهبته الأدبية. وقد جمع الفلسفة والفن في نتاجه، وطبّق أصول نظريته في آثاره على نحو ممتاز، يستدعي الانتباه ويدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان الجاحظ استنبط أصوله الفنية من نتاجه أو صاغ نتاجه بعد وضع أصوله الفنية.

وإذا نظرنا إلى الكتب التي شرح فيها نظريته الجمالية مثل الحيوان والبيان والتبيين، نجدها قد وضعت في أواخر حياته، مما يجدر بنا القول أنه استخرج أصوله الفنية من نتاجه الأدبي.

وعندما حاول الجاحظ تحديد الجمال وجد صعوبة دفعته إلى القول: " فإنَّ أمرَ الحسن أدقُّ وأرقُّ من أن يدرّكه كلُّ من أبصره " ( الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة القيان، 162). وهذا يعني أن إدراك الجمال لا يتم بواسطة حاسة البصر فقط، وإنما يحتاج إلى إعمال العقل والثقافة والرياضة أو الخبرة.

والاعتدال يعني التوازن والتناسب بين أعضاء الجسم. وبالنسبة إلى الجسم البشري ينبغي أن يكون ثمة تناسب بين الرأس والجذع والأطراف، وبين العينين والأذنين والفم والذقن والجبين. فالظهر الطويل لا يتناسب مثلا مع الفخذين القصيرين، وكذلك لا يتلاءم الظهر القصير مع الفخذين الطويلين. وقل

فلسفة السخرية في الخطاب الحجاجي.

الشيء نفسه بالنسبة إلى سعة الفم والعينين بالمقياس مع سعة الوجه وحجم الرأس إلخ ...

فما هو المقياس الذي نقيس به عظم أعضاء الجسم، ونحكم عليها بأنها تامة معتدلة، وبالتالي جميلة؟ يجيب الجاحظ أنّ ذلك المقياس هو الجسم المتوسط المعتدل التكوين، فما اقترب منه عدّا جميلا، وما ابتعد عنه عدّا قبيحا. (علي أبو ملحم، ، عدد يونيو 1987م، 232).

من خصائص المحاجة في أسلوب الجاحظ، استخدامه السخرية l'ironie كآلية حجائية في كشف ما يبطنه الانسان من أخلاقيات سلبية مشينة، ولقد لجأ الجاحظ إلى هذه الاستراتيجية ليدفع بها القارئ أو السامع إلى أعمال العقل والتفكير فيما يحويه المجتمع من مظاهر سلبية كظاهرة البخل. إلى جانب هذا نجد أنّ الجاحظ، أسّس موضوع كتابه " البخلاء" على مفارقة عجيبة من خلال تصوير بخلائه في صورة ذوي اصلاح وصلاح، بينما هم أناس يجري البخل في عروقهم مجرى الدم. بالإضافة إلى هذه الاستراتيجية الحجائية في اقناع القارئ، لجأ الجاحظ في تمرير قناعاته إلى أسلوب الاحتيال كآلية حجائية في توجيه قناعة القارئ أو المستمع الوجهة التي يريدّها، فبدا هذا من خلال الوظيفة التمويهية والوظيفة التذكيرية أو التوجيهية. والملاحظ على أسلوب الجاحظ الحجائي: كثرة الحجج المنطقي.

- العناية الكبيرة بإيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء.
- محاكاة القرآن الكريم وإيراد الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية بتحقيقها وتخير القويّ منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو الضعيف.

قائمة المراجع:

الجاحظ، أبو عثمان بن بحر: البيان والتبيين. تحقيق: حسن السندوبي، دار المعارف، 1990م .

البخلاء. تحقيق: طه الحاجري، دارالمعارف، القاهرة، ط4، (د.ت) .

الحيوان. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط2، 1485هـ-1965م

رسائل الجاحظ: رسالة المعاش والمعاد، رسالة القيان، رسالة النساء. استحقاق الإمامة تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م

- أبو ملحم، علي، الجاحظ رائد الجمالية العربية، مجلة الفكر العربي، العدد السادس والأربعون، السنة الثامنة عدد يونيو 1987م

. آمنة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع.

.المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2011.

- بيراز، هنري: مجموعة نصوص، كلية الآداب، الجزائر، 1958م.

- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث، ط2، 2011.

- .فتحي معوض، أبو عيسى: الفكاهة في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1970م

عبد الله الغدامي ، النقد الثقافي ، المركز العربي ، الدار البيضاء ، ط3 ، 2005 .

عبد الواحد التهامي العلمي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ ، عالم الكتب الحديث ، 2015

أ- هبة الله بغدادى، أ-د مليكة بلقاسمي

محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق،

2005

- ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ط 2، مؤسسة نوفل

بيروت - لبنان 1981م.

- Dominique Maingueneau, élément de linguistique pour le texte littéraire, 1er édition, Bordas, Paris, 1990.

- Philippe Breton, la parole manipulée, édition la découverte, Poche, paris, 2000.